

تمهيد:

خَلَدَ الأدباء من خلال أدب الرحلة ذكر الإنسان بما هو عادات، وتقاليد، وطقوس، ومراسيم احتفالات، كما خَلَدَت الخطابات الرَّحَلِيَّة ذكر المكان بما هو أقاليم، ومسميات، وعمارات، ونقوش، ومواقع، فضلاً عن تدوين أنباء الحضارات البشرية بما هي آثار مادية ومعنوية، فاكتسب بذلك أدب الرحلة أهمية لا تنكر حين ساهم في حفظ الخصوصية أولاً، وتجسيد الأدبية ثانياً، وعليه، ما هو المفهوم اللغوي والاصطلاحي لأدب الرحلة؟ ما هي أسباب وجوده؟ كيف كانت نشأة الخطاب الرَّحلي في الوطن العربي إبان العصر الحديث؟ وما هي خصائصه؟

أولاً- مفاهيم أولية:

1- المفهوم اللغوي:

نقرأ في مادة رحل من لسان العرب دلالات لغوية ثرة، غير أننا نلاحظ أن ابن منظور لفت انتباهنا إلى نقطة مهمة تخص بداية استعمال المادة عند العرب، فقد ذكر أن أول استخدام لمادة رحل خص به ما يمتطى من الإبل مذكراً ومؤثناً، ثم بعد هذا الاستعمال تجاوزت العرب في لغتها إلى تخصيص دلالات مادة رحل للإنسان، ونستشف هذا من قوله ابن منظور: "ارْتَحَلَ البعير رِحْلَةً سار فمضى، ثم جرى ذلك في المنطق حتى قيل ارْتَحَلَ القوم"¹، ومن دلالات المادة أن العرب تقول "ارْتَحَلَ القوم عن المكان ارْتِحَالاً، وَرَحَلَ عن المكان يَرْحَلُ وهو رَاحِلٌ من قوم رُحَلٍ: انتقل"²، وزادت العرب في دقة توصيفها لدلالات الجذر وربط ذلك بتصريفاته المختلفة، ف "رجل رَحُولٌ، وقوم رُحَلٌ أي يَرْتَحِلُونَ كثيراً، ورجل رَحَالٌ: عالم بذلك مجيد له"³، "والرَّحْلَةُ اسم للارْتِحَالِ: المسير..، وقال بعضهم: الرَّحْلَةُ بالضم الوجه الذي تأخذ فيه وتريده، تقول أنتم رُحَلْتِي أي الذين ارْتَحَلُوا إليهم.. ابن سيده: الرَّحْلَةُ السَّفَرَةُ الواحدة"⁴، وبهذا تعددت دلالات المادة بين الانتقال، والمسير، والوجهة، والعالم ذو الدراية بالرحلة، والسفرة الواحدة.. لنقول بدورنا إنه ثراء دلالي في الاستعمال اللغوي عند العرب لهذه المادة.

2- المفهوم الاصطلاحي:

يورد معجم المصطلحات الأدبية لابراهيم فتحي مصطلح "عالم الترحال" عند الألمان، ومما جاء في مفهومه قوله: "عالم الترحال: تعبير ألماني يعني سنة التيه وينطبق على فترة في حياة الإنسان يهيم فيها على وجهه ويتغيب بعيدا عن عمله وموطنه ودراسته وينشغل بالسفر والتفكير والبحث عن تجارب جديدة أو بصيرة جديدة"⁵، لقد ضيق فتحي المعنى على الترحال عند الألمان وقرنه بخصوصية هذا الجنس من حيث تجديد التجربة والبصيرة، غير أن فتحي أبقى على شيء من جوهر الترحال في العموم وذلك من حيث الاتكاء على معنى السفر. غير أن أهم مفهوم أدب الرحلة نقرأه عند عبد الرحيم مؤذن في دراسته عن الرحلة في الأدب المغربي جاء فيه: "الرحلة جنس أدبي يقوم على مَحْكِي السَّفَر، كما أن أنماطه وأنواعه توظف هذا المحكي بصيغ مختلفة وأساليب متنوعة"⁶، ثبت مؤذن في مفهومه أن الرحلة جنس أدبي، وبهذا ساهم في محاولة منه لحل إشكالية التجنيس على مستوى هذا اللون النثري العربي، كما حدد أن هذا الأنموذج الأدبي إنما الأساس فيه عنصران هما المتن الرّحلي وهو قائم على "محكي السفر"، والمبنى الرّحلي المؤسس على مجموعة أساليب غير ثابتة تتغير بحسب نوع ونمط الرحلة، وهذا المفهوم نرتضيه؛ لأنه على الأقل قارب بعضا من خصوصيات الخطاب الرّحلي في عمومته.

ثانيا- أسباب وجود أدب الرّحلة في العصر الحديث:

1- من الأسباب القصد إلى بيت الله الحرام لأداء مناسك الحج، وتسمى بالرحلة الحجازية، أو الرحلة الحجية، توزعت هذه الأخيرة بين المشرق والمغرب كرحلة عبد القادر بن محمد الجزيري الأنصاري (المتوفي سنة 1295هـ/ 1878م). صور الرحالة في نصوصهم الحج ومناسكه، وأهم البقاع المقدسة التي لا ينبغي على الحاج تفويت فرصة زيارتها وعلى وجه أخص طيبة وفيها تتم "زيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام بالمدينة المنورة"⁷، وقد يتعدى السفر ببعض الرحالة إلى زيارة بيت المقدس. ومن بين غايات الرحلة الحجازية تصحيح الرحالة معارف المسلمين عن الحج من بعض الأخطاء التي علقت بأذهانهم، والدليل على ذلك رحلة البنتوني التي قال عنها: "رأيت أن أضيف إلى الرحلة الخديوية كلمة عن المشاعر الدينية المقدسة مبعدا الترهات التي ألحقتها بها مبالغة الوهم أو مغالبة العرض مما أخذه أعداء المسلمين وسيلة إلى الطعن عليهم في دينهم لدى جل ما تعرفوا به منه إنما أخذوه عن أولئك الجهلاء الذين رزئ بهم الإسلام فيكيلون لهم الكلام جزافا من غير ما يشعرون بأنهم به ينتحرون"⁸.

2- كما نضيف المشاركة في المؤتمرات كالرحلة اليابانية للرجاوي، وكانت بسبب المؤتمر الديني المنعقد في اليابان وقد شارك فيه علماء الدين من مصر، يقول الجرجاوي عنها "هذا وقد كنت أقرأ في الصحف المحلية ما تنقله من الأنباء المتواترة بانعقاد مؤتمر ديني في بلاد اليابان بأمر الميكادو والحاكم على تلك البلاد وتوجه البعثات الدينية من المسلمين وغيرهم لحضور هذا المؤتمر الذي تنحصر أعماله في البحث في أصول كل دين فكنت أتابع الكتابات في كثير من أعداد جريدتي الإرشاد حاضاً على تأليف وفد من أفاضل العلماء المصريين للاشتراك مع الوفود الأخرى لحضور جلسات هذا المؤتمر ونشر التعاليم الدينية الإسلامية بين أمة الشمس المشرقة"⁹، ويسمى هذا النوع بالرحلة العلمية .

3- بروز فكرة استكشاف الوطن العربي في العصر الحديث، وتنوعت بين التنقيب عن الآثار العربية المدفونة في شبه الجزيرة العربية وقد ذكرها القرآن الكريم، أو استكمال البحوث الاستكشافية الغربية في الوطن العربي، ومنها توغل المصريين "في جنوبي السودان يريدون أن يعرفوا منابع النيل وكان كثير من الغربيين سبقوهم إلى ذلك فشاركوهم وأسهموا معهم في هذا الميدان"¹⁰ وتسمى بالرحلة الاستكشافية. وأخيراً قد تكون الرحلة تلبية لرغبة ذاتية مبعثها حب الاستطلاع، ومثال ذلك رحلة محمد شفيق مصطفى ألفها سنة 1927م وأهداها سمية "في قلب نجد والحجاز"، ولقد تزامنت هذه الرحلة مع مرحلة تأسيس دولة آل سعود وتوحيد نجد والحجاز معاً، فقال عنها: "كان كل ما تقدم من الأسباب المباشرة التي دفعتني للقيام بهذه الرحلة الشاقة الطويلة، وحسبي أنني قصدتها لوجه العلم والاطلاع.. فتم لي ما أردته من حيث الاستطلاع الصحيح وإصابة الهدف المقصود"¹¹، وسميت بالرحلة الاستكشافية.

4- التجوال في الأراضي العربية والغربية سياحة وتدوين ذلك، أطلق عليها سمية الرحلة السياحية، ومن نماذجها أسبوع في باريس، لمؤلفها محمد بن عبد السلام السائح، ورحلة حديقة التعريس في بعض وصف ضخامة باريس أو الغصون الكاسية بأزهار وصف الديار الباريسية لعبد السلام بن علال الفهري¹².

5- تعددت وجهات السفارات العربية في آسيا، وأوروبا، وإفريقيا، وتنوعت الغايات بين تمثيل الدول العربية أو بذل المزيد من الجهود الدبلوماسية من أجل تحرير الأسرى المسلمين من يد الإسبان إثر الحروب الصليبية في بلاد المغرب العربي، سميت هذه النماذج بالرحلة السفارية والرحلة الدبلوماسية، ومن نماذجها الرحلة السينية للحضرة الحسينية بالمملكة الاصبنيولية للكرودي. أما

في المشرق العربي فنذكر رحلتي أمين الريحاني قلب العراق، وملوك العرب، تقمص فيهما دور السفير لنشر فكرة الوحدة العربية، وكشف نوايا الاستعمار، وزرع السلام بين المسيحيين والمسلمين باسم الإنسانية، فاستقبل شيوخ العرب الريحاني وأكرموا وفادته بسبب حسن نواياه اتجاههم.

ثالثاً- نشأة أدب الرحلة في العصر الحديث:

شهدت الخطابات الرحلية غزارة في الإنتاج، وعلى نطاق واسع من تراب الوطن العربي في مشرقه ومغربه، كما عرفت امتداداً زمنياً شمل القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، أخذت الرحلات الحديثة مسالك برية، وبحرية وجوية، وقد استخدم فيها كل متاح من وسائل النقل، ففي بدايات القرن التاسع عشر غلب عليها شيء من وسائل النقل التقليدية في الرحلة كالإبل، والحمير، والبغال، والخيول، ثم استعملت لاحقاً وسائل النقل الحديثة كالعربات، والقطار ومن أسمائه (بابور البر) و(الرتل)، والسيارة، في حين استثمر آخرون الطائرة. وإن جننا إلى الحديث عن رحلات الخطابات الرحلية الحديثة فيمكننا القول بأنها اتخذت وجهات متعددة فبعضها صوب الوطن العربي سلك الرحالة فيها وجهات متنوعة بين الشمال، والجنوب، والشرق، والغرب، ومما يتوجب الإشارة إليه أن الذي يرسم خط سير الرحلات إنما هو غاية الرحلة في حد ذاتها حيث نسجل نسبة كبرى من الرحلات الحديثة صوب المشرق العربي تحديداً مكة المكرمة، وقد تحكمت فيها غاية أداء مناسك الحج، في الوقت عينه شهدت بعض الرحلات رسم خط سيرها صوب الآخر .

ومن أبرز الخطابات الرحلية الحديثة التي تطالعنا في القرن التاسع عشر من المشرق، نذكر رحلة رفاعة رافع الطهطاوي 1801-1873م سجلها في مدونته تخلص الإبريز في تليخيص باريز، فهي بمثابة الحلقة التي وصلت تاريخ إنتاجية المدونات الرحلية القديمة بتاريخ إنتاجية الخطابات الرحلية في العصر الحديث. تحدد الباعث على ميلاد الرحلة الطهطاوية سببان رئيسان، أما الأول منهما فراجع إلى محمد علي الذي كان "علي ثقة بالشيخ حسن العطار فطلب منه أن يختار له شيخاً من الأزهر يكون إماماً لهذه البعثة، فاخترت إليه رفاعة الطهطاوي، وهكذا سنحت الفرصة لصاحبنا فذهب سنة 1826 مع البعثة إماماً ومرشداً دينياً لا طالب من طلاب العلم.. قضى في فرنسا خمس سنوات وفي أثناءها كان يدون ملاحظاته ومشاهداته ثم جمعها في كتاب سماه تليخيص الإبريز في تليخيص باريز، ولما عاد من رحلته قدمه إلى أستاذه الشيخ العطار، فأعجب به وقزظه لدى محمد علي"¹³، أما ثاني البواعث لتدوين رحلة الطهطاوي فهو "الاستجابة لرغبة بعض أقاربه ومحبيه ولا سيما شيخه حسن العطار الذي كان مولعاً بسماع عجائب الأخبار، والاطلاع على

غرائب الآثار¹⁴، ومن مدونة الطهطاوي نختار مقطعا رحليا يصف فيه رصف مائدة للطعام على الذوق الفرنسي لطلبة البعثة حيث يقول الطهطاوي فيه: "ولم نشعر في أول يوم إلا وقد حضر لنا أمور غريبة في غالبها وذلك أنهم أحضروا لنا عدة خدم فرنساوية، لا نعرف لغاتهم، ونحو مائة كرسي للجلوس عليها؛ لأن هذه البلاد يستغربون جلوس الإنسان على نحو سجادة مفروشة على الأرض، فضلا عن الجلوس بالأرض، ثم مدوا السفرة للطور.. رصوها من الصحون البيضاء الشبيهة بالعجمية، وجعلوا قدام كل صحن قدحا من الفزاز وسكينا وشوكة وملعقة، وفي كل طبليّة نحو قزازتين من الماء وإناء فيه ملح وآخر فيه فلفل ثم رصوا حوالي الطبليّة كراسي لكل واحد كرسي¹⁵. أما إذا تحدثنا عن أحمد فارس الشدياق 1804-1887م، فنجد أنه ألف رحلتين وهما الوساطة في أحوال مالطة، وكشف المخبا في فنون أوربا. ومن نماذج مدونة الشدياق نقتطف مقطعا يتحدث فيه عن بعض أخبار الانجليز مما "يحمد من تربية أولادهم: ومن العجيب أن الوالدين من الانكليز إذا كانا قبيحين تأتي أولادهم ملاحا.. والظاهر أنهم أحسن تربية للأولاد من غيرهم فإنهم يغسلون بالماء البارد في كل يوم إذا كانوا أقوياء أو بالفاتر إذا كانوا ضعفاء، ولا يقيمونهم حتى يمتنعوا عن الحركة كما يفعل في بلادنا وإنما يشدونهم بحزام فقط، وبعد نصف سنة يعودونهم على الأكل الخفيف مع اللبن فلا تأتي سنة على الطفل إلا وهو يلتقم كل شيء"¹⁶. أما عن أبرز الخطابات الرحلية المغربية المنسوبة للقرن التاسع عشر فنشير إلى الرحلة الحجية في الجزائر، انطلق فيها الأمير "عبد القادر مع والده محي الدين من منطقة وهران بالجزائر بعد أذن لهما حاكم وهران.. من دون المرور بقريتهما القيطننة تجنبا لمظاهر التجمهر التي أثارت ريبة الحاكم التركي قبل سنتين، فكانت بداية الرحلة في نوفمبر 1825م"¹⁷. ومن شنقيط/ موريطانيا انطلقت رحلة طوير الجنة واسم صاحبها بالكامل أحمد المصطفى بن طوير الجنة عاش في القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي، فصل في خبرها أبو القاسم سعد الله، وذكر أنه قرأ عنها في كتاب "المرآة لحمدان بن عثمان خوجة الجزائري الذي كتبه سنة 1833، فقد شكّا حمدان في كتابه من إجبار السلطات الفرنسية للجزائريين على توفير وسائل الراحة للشيخ ابن طوير الجنة وحاشيته عندما حلوا بالجزائر في طريق عودتهم من الحجاز إلى شنقيط"¹⁸.

استمرت الرحلات العربية الحديثة مع النصف الأول من القرن العشرين، ومما تشير إليه رحلة محمد حسين هيكل إلى ولدي، وكان الباعث على القيام بها هو موت ابن هيكل وهو صغير السن، مما تسبب لأبيه وأمه في صدمة نفسية، وكان الشفاء منها بالرحلة بعيدا عن مصر، ومما يحكيه هيكل عنها قوله: "وكنّت يومئذ قد بلغ بي الملل ففكرت في هذا السفر ولم أجد خيرا من أوربا

مصحا لزوجتي ولي فسافرت وإياها في 19 من يونيو سنة 1926 على الباخرة مونجوليا من بواخر (بنينسيولار وأورينتال) قاصدين مرسيليا، فباريس..، وقضينا في باريس ثلاثة أسابيع ثم غادرناها إلى لندن حيث قضينا سبعة عشر يوما ومنها عدنا إلى باريس.. لننتقل منها إلى سويسرا نقطعها من الطرف الفرنسي إلى الطرف الإيطالي، ثم ننحدر إلى البندقية نزورها ونأخذ بعد ذلك الباخرة حلوان من بواخر (اللويدي ترييستينو) لترسو بنا في الاسكندرية في 18 من أكتوبر يوم تمام الشهر الثالث لمغادرتنا مصر وبحسبي تقديرا لأثر هذه السياحة أن أذكر كلمة كانت تكررها زوجي: إن باريس ردت إلي طعم الحياة¹⁹. كما نضيف مجموع المدونات الرحلية المنسوبة لأمين الريحاني، فبعضها أخذ خط سير داخلي وأخرى خارجي، أما عن الأولى فنذكر رحلته قلب لبنان، خصها الريحاني لزيارة المدن الداخلية لبلده لبنان، أما رحلات الريحاني الخارجية التي خص بها الدول العربية فقد أثمرت عن قلب العراق، ونور الأندلس، وملوك العرب التي فرغ الريحاني من كتابتها في أيلول من العام 1924م وقد جعلها في جزئين، ومن أسباب الرحلة الأخيرة أن الريحاني أراد بملوك العرب التعريف بهم حيث يقول: "وليس في ملوك العرب اليوم ملك ساح في البلاد العربية كلها وليس فيهم من يستطيع أن يقول إنني أعرف بلاد العرب وحكامها وسكانها وقبائلها وأحوالها الاقتصادية والزراعية وشؤونها السياسية الداخلية والخارجية"²⁰. وفي مصر تحامى المازني وهيكل في كتابة الرحلة الحجازية، فألف الأول مدونته إلى بلاد الحجاز وسلك فيها الطريق البحري، كما أنه لم يحدد التاريخ الذي انطلقت فيه الرحلة. أما هيكل فكتب مدونته الرحلية من وحي النبوة وهي رحلة حجية، ومما نستشهد به في هذا المقام مقطعا سرديا رحليا لهيكل صور فيه مشاعره الحقيقية كحاج وهو يقف أمام الكعبة لأول مرة في حياته، فقال: "تبدت لي الكعبة قائمة وسط المسجد فشد إليها بصري وظفر نحوها قلبي ولم يجد فؤادي عنها منصرفا، ولقد شعرت لمراها بهزة تملأ كل وجودي، وتحركت قدمي نحوها وكلي الخشوع والرغبة وقلت إذ وقع نظري عليها ما ألقى المطوف علينا أن نقوله: اللهم أنت السلام ومنك السلام حيينا ربنا بالسلام، فزادني تحرك شفتي بهذه الألفاظ مهابة ورهبة"²¹، وهناك رحلات أخرى منسوبة لأحمد أمين بثها في كتابه فيض خاطر الجزء الثاني والثالث، ناهيك عن إسهامات ميخائيل نعيمة في كتابه البيادر حيث كتب رحلتان رفيف وإبريق وماء، والرحلة الثانية هي غدا تنتهي الحرب، أما العقاد فرصده ثر بالرحلات منها الداخلية بغرض السياحة اتجه فيها من القاهرة إلى الاسكندرية وتمت الرحلة على متن زورق انطلقت من نهر النيل، وله رحلات أخرى خارجية كانت رُحلتها إلى فلسطين ورحلة ثانية إلى ليبيا، وأخرى إلى السودان.

رابعا- خصائص أدب الرحلة في العصر الحديث :

1- **هيكله الخطاب الرحلي:** صمم الخطاب الرحلي وفق هيكله مقدمة يذكر فيها تاريخ بداية الرحلة وللرحالة أن يختار التاريخ الهجري أو الميلادي، كما يقوم الرحالة بتحديد مكان انطلاق الرحلة، ووسيلة السفر، ومسلكها البري أو البحري أو الجوي، وبإمكان الرحالة الاستعانة ببعض العناصر التأثيثية للمقدمة الرحلية وهي ذات صبغة دينية كأن يستهل مدونته بالبسملة، الحمدلة، الحوقلة، وكذلك الصلاة والسلام على النبي عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام. أما العرض وفيه يحدد خط سير الرحلة مفصلاً ذهاباً وإياباً، فضلاً عن احترام تسلسل الأمكنة حسب الرحلة، وتثبيت أبرز المفاصل الزمنية للرحلة بدقة. أما الخاتمة فهي تحديد لتاريخ العودة إلى الديار.

2- **طبقات مقاطع الخطاب الرحلي:** نجد الخطابات الرحلية متنوعة بين مقاطع الخطاب الرحلي السردية، ومقاطع الخطاب الرحلي الوصفية، ومقاطع الخطاب الرحلي الاستطرادية، ومقاطع الخطاب الرحلي الحوارية، في مواطن المقاطع السردية يسرد الرحالة ما يراه مناسباً للسرد، ومن أمثلة ذلك سرد المشاق التي اعترضت هيكل في رحلته عندما وصل إلى مدينة النور باريس حيث يقول: "وبلغ بنا القطار مدينة النور قبل منتصف الليل بساعة فإذا أرصفت محطة ليون من محطاتها تكاد تكون خالية، وإذا نورها ضئيل، وإذا بنا نصيح حمال ينقل متاعنا خارج المحطة فلا يجيبنا أحد زماناً غير قليل، ومتاعنا كثير غير سهل الحمل فجعلت أدور هنا وهناك منادياً شياش، شياش، حتى عثرنا منهم على من أوصلنا إلى أوتوموبيل أقلنا ومتاعنا إلى فندق شاتام مجتازاً أكثر الشوارع خلاءً وسكوناً في هذه الساعة الساكنة بطبعها من ساعات الليل، السفر قد هدنا تعباً ولغوباً، فأوينا إلى غرفتنا منتظرين بكرة الصباح لكي نستقبل باريس وتستقبلنا باريس"²². وأما المقاطع الوصفية فإننا نجد المدونات الرحلية قد وصفت كل ما يستحق أن يوصف كالآثار، العمائر، النقوش، حتى وصف الشخصيات، ومن ذلك نورد مقطعا وصفيا من رحلة أحمد أمين إلى طور بالسيارة رفقة بعض الأصدقاء، جاء فيه: "وإذا بمنظر رائع تتسينا لذاته ما نالنا من الضنى، ننظر يمناً فهذا واد فسيح وصحراء جرداء نثرت فيها أشجار تكافح للحياة، وننظر يسرة فهذا بحر يعج بالموج وبالحياة، وأمامك جبال متسلسلة تبعث فيك الروعة والجلال، وتتناغم كل هذه المناظر فتؤلف موسيقى يعجز عن وصفها البيان"²³. قام الوصف والسرد في الخطاب الرحلي على الدقة، وكذا ضبط بعض الأسماء الواردة في الرحلة، وقد يتعدى الأمر إلى تبيان كيفية نطقها مثل "والعُيُنَّة: بعين مهملة بعدها ياء مثناة تحتية مفتوحة، وأخرى مثلها ساكنة ونون مفتوحة، والبقاع- مفرد بُقعة- ومدشُوس- بميم مفتوحة بعدها دال ساكنة وسين مضمومة"²⁴. أما المقاطع الحوارية فمثال ذلك نستشهد به من رحلة حسنين جاء فيه: "فإذا بطارق على الباب وحررت في التكهن بمن يريدني في تلك الساعة، ولكنني تقدمت إلى الباب

وفتحته قليلا فرأيت بدويا لا أعرفه، متلحفا بجرده، فأقفلت الباب في وجهه وسألته: من أنت؟ فقال صديق: ولكني لم أطمئن إلى ذلك فسألته عن اسمه وعما يريد، فأجابني من وراء الباب: أنا صديق أريد أن أسر إليك شيئا لا بد من إخبارك به. ففتحت الباب وسألته الخبر فدخل بلهجة المستفسر أظنك ستسير إلى الجيوب من درب الطوالي فأومأت برأسي أن نعم، فقال وفي لهجته شدة: لا تذهب. فقلت: ولم هذا؟ فأجاب: أن البك غني يحمل معه ثروة طائلة والأعراب أهل شره ونهم والدائر على الألسنة أن معك صناديق مملوءة ذهباً²⁵.

3- تداخل النصوص في الخطاب الرحلي: نلاحظ على جسد تلك المتن الرحلية تداخل مجموعة من الخطابات المتعددة المنازع فتحوّلت عبر هذا التداخل إلى فسيفساء من النصوص المختلفة التخصصات مشكلة جزءا من هوية الرحلي، ف"تداخل فيها الشعر بالثر، والخطاب الشرعي بالخطاب الحكائي، والأسلوب الوصفي فيها بنصوص الفتاوى والاجتهادات المختلفة"²⁶، ومن أدلة تداخل الرحلي بالشعري وبالديني (القرآن والسنة) نورد مقطعا من مدونة مرآة الحرمين جاء فيه "وفي منتصف الساعة التاسعة العربية من يوم الخميس أفلعت الباخرة (بسم الله مجريها و مرساها) ميممة جدة فوصلتها في صبيحة 19 ذي القعدة (10 مارس) في الساعة الثانية العربية فنكون قد قطعنا المسافة بين السويس وجدة في ست وستين ساعة وهي 646 ميلا..، مررنا برابغ على الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر وهناك أحرم المسافرون بعد أن اغتسلوا وحلقوا وقصوا الأظافر ولبسوا لباس المحرمين (الرسم 69) فرفعوا أصواتهم بالتلبية لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

تجدت لما أن وصلنا لرابغ و لبيت للمولى كما حصل النداء

وقلت إلهي عندك الفوز بالمنى و إني فقير قد أتيت مجردا"²⁷

4- البنية الزمنية في الخطاب الرحلي: تعددت البنية الزمنية في الخطابات الرحلية ، فهناك زمن الرحلة وهو الزمن التي جرت فيه أحداث الرحلة من بدايتها إلى نهايتها وكما أقر بها صاحبها باليوم والشهر والسنة ، و مما يحتسب للرحلات الحديثة ، أنه " في هذا القرن أضاف بعض الرحالة التحديد بالساعة بعد أن كان التحديد المعروف بالصباح أو الظهر أو الليل"²⁸، وهناك زمن الأحداث المسرودة عن الأمم المجاورة ففيها يحتل الماضي طابع الصادرة في بناء زمن الجملة للدلالة على الحديث في زمنه الماضي. وهناك زمن يخص الرحلة الحجية يسميه مودن زمن "اللازم" إنه زمن سماوي قبل أن يكون زمنا أرضيا²⁹.

5- الطّابع القصصي: استخدم الرحالة في مدوناتهم الرحلية الطابع القصصي غير أنه يتوجب علينا التنبيه إلى أن هذا القص يكون من باب الحقيقة، وقلّ ما ينطلق الرحالة فيه من الخيال، وأخرى يمتزج فيها الخيال بالحقيقة . يتقمص فيها الرحالة دور الراوي، في الوقت الذي يسعى فيه إلى تدوين الرحلة في وحدة متماسكة، فضلا عن عنصر التشويق، ولشد ما يحرص الرحالة على صبغ مقدمة الرحلة بالطابع القصصي، ودليل ذلك رحلة العقاد التي جاء فيها "جولة في الماء محدودة وجولة في السماء غير محدودة، مساحة على الأرض تدرع بالأشجار والأميال، ومسافة أخرى في عالم لا نعرف أوائله ونهاياته ولا تقاس أعماقه وآفاقه، تلك هي المرحلة المزدوجة التي أقضيها كلما ركبت الزورق الصغير على النيل"³⁰، وأخيرا نصل إلى تعدد الرواة لأن السرد يتبادلته الرحالة ومجموع الأشخاص الذين التقى بهم.